أسرى الحرية

أحمد جميل عزم*

أسيران من زمن الانتفاضتين

يهدف هذا التحقيق، في شق أساسي منه، إلى نقل روايات عائلات الأسرى، والأوضاع التي عاشوها وعانوها بسبب مسيرة الأسير، أو بالتوازي والتزامن معها، وهو محاولة لفتح ملفات الأسرى من زوايا عائلاهم. ولذلك ننقل رواية الأُسر عن أقاربهم من دون أن نسلّم بدقتها التاريخية كلياً، وإن جرى تحرّي الدقة بقدر الإمكان، وننقل بعض أوجه الظروف الاجتماعية والنفسية والمادية التي وجدت عائلات الأسرى نفسها فيها بسبب العقوبات الجماعية التي أصابتها من جانب الاحتلال، أو بسبب غياب الأسير.

مع إطلاق الأغلبية العظمى من أسرى "ما قبل مرحلة اتفاق أوسلو"، أي ما قبل سنة ١٩٩٣، تتجه الأنظار نحو مجموعات أُسِرَت بعد هذا التاريخ، وخصوصاً أسرى انتفاضة الأقصى في سنة ٢٠٠٠. وفي هذا التحقيق نحاول تقليب الصفحات الخاصة باثنين من الأسرى ينتميان إلى هذه الفئة.

ناصر عويص وعاهد أبو غلمي، كلاهما في منتصف الأربعينيات من عمره، وكلاهما نتاج مرحلة ما يُعرف بانتقال الثورة إلى الداخل، أي مرحلة ما بعد بيروت ١٩٨٢، والغزو الإسرائيلي، وتَحوُّل ثِقَل العمل النضالي الفلسطيني إلى داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة منذ سنة ١٩٦٧. كلاهما عاش تجربته الاعتقالية الأولى قبل اندلاع الانتفاضة الأولى في سنة ١٩٨٧، وبالتالي هما في صلب الإرهاصات التي أدت إلى اندلاع ما سُمي "انتفاضة الحجارة". إلى ذلك مارس كلاهما الكفاح المسلح باكراً، وكانا فاعلين في التشكيلات العسكرية الناشئة باعتبارها أجنحة جديدة للفصيلين التاريخيين الأكبر في منظمة التحرير الفلسطينية، حركة "فتح" والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وكلاهما مَعلَم رئيسي فيما يسمى "عسكرة" انتفاضة الأقصى.

اعتمد هذا التحقيق إلى حد كبير على مقابلات شخصية مع أفراد من عائلتَي الأسيرين:

* رئيس برنامج الدراسات العربية والفلسطينية في جامعة بير زيت.

بسام عويص شقيق ناصر، ووفاء يوسف أبو غلمي، زوجة عاهد.[1]

سأل بسام في أثناء المقابلة: بالتأكيد ستأخذ ما سأقوله لك وتتأكد منه؟ وقد فهمت سؤاله، فهو يقدم كثيراً من المعلومات عن شقيقه ممّا سمعه وقرأه، وهو نفسه غير متأكد من بعض التفاصيل، وتحديداً ما يتعلق بنشاط ناصر النضالي. أمّا وفاء فتقول بوضوح أنها في الزيارات والمرات التي قابلت زوجها فيه، سواء في إبان اعتقاله لدى أجهزة الأمن الفلسطينية أو في سجون الاحتلال، تحاشت هي وزوجها الحديث عن نشاط عاهد، في الموضوعات ذات الطابع العسكري، لأن أي معلومات يمكن أن تصبح عبئاً عليها.

ناصر عويص "البريء الأصبح"

بلغ ناصر عويص، في ١١ كانون الثاني / يناير الفائت، الرابعة والأربعين من عمره، إذ إنه وُلد في سنة ١٩٧٠ لأسرة هُجِّرت أصلاً من قرية الشيخ مونس، شمال يافا، وحطت رحالها في مخيم بلاطة، جنوبي شرقي نابلس.

يظهر اسمه في فصول فلسطينية متعددة تنتظر التوثيق. أولها الدور الخاص لمخيم بلاطة في المقاومة الشعبية الفلسطينية، إذ يُعتبر هذا المخيم بحسب كثيرين مهد الانتفاضة الأولى في الضفة الغربية في سنة ١٩٨٧، أو على الأقل مكان انتقال الشرارة من غزة. وكما يقول بسّام عويص، شقيق ناصر، فإن بلاطة كان ثاني مكان دخل تلك الانتفاضة بعد غزة، ويفرد زئيف شيف، في كتابه "انتفاضة" جزءاً خاصاً لدور شبيبة بلاطة، في تفجير تلك الانتفاضة، بل الإعداد لها. وناصر عويص بلا شك في طليعة مَن بدأ النشاط في تلك الانتفاضة.

إلى ذلك فإن نابلس هي مهد "كتائب الفهد الأسود"، الجناح العسكري لحركة "فتح" في أواخر الانتفاضة الأولى. وستبقى قصة "كتائب شهداء الأقصى"، جناح "فتح" العسكري، في انتفاضة الأقصى في سنة ٢٠٠٠، والتي يُعتبر ناصر من مؤسسيها، وعائلته تعتقد أنه "مؤسسها"، قصة بحاجة إلى مزيد من التوثيق. وبعد هذا كله، فإن ناصر جزء من قصص الإبعاد عن الوطن، والعودة إليه، وقصص النضال في الجامعات الفلسطينية في فترة التسعينيات.

اعتُقل ناصر عويص أول مرة في ١٩ كانون الثاني / يناير ١٩٨٥، بتهم تتضمن إلقاء زجاجات حارقة على دوريات الاحتلال، وتنظيم الشبان في صفوف حركة "فتح"، وقيادة مجموعة عسكرية، وحُكم عليه بالسجن بخمسة أعوام. ونَشِط في تنظيم وقيادة الحركة الأسيرة، وخصوصاً أنه كان قد أمضى ثلاثة أعوام فيها مع اندلاع الانتفاضة الأولى في كانون الأول / ديسمبر ١٩٨٧ وما تلاها من تدفق للمعتقلين على السجون.

خرج من المعتقل في مرحلة متقدمة من الانتفاضة، عندما كانت قد بدأت تفقد طابعها الشعبي لمصلحة ظهور مجموعات عسكرية، من أبرزها كتائب "الفهد الأسود" التي بدأت في نابلس وشمال الضفة الغربية.

ولم يطل الأمر بناصر، فقد حوصر ومعه مجموعة كبيرة من الشبان من الناشطين في الكتائب، في جامعة النجاح، في نابلس، مدة أربعة أيام، في تموز / يوليو ١٩٩٢. وضمن ترتيبات إنهاء الحصار التي توصل إليها وفد من وجهاء نابلس وقوات الاحتلال، أُبعد ناصر إلى الأردن لثلاثة أعوام مع مجموعة من الناشطين، هم: ياسر البدوي؛[2] عبدالله داود؛[3] بلال

دويكات؛[٤] محمد تيم؛[٥] ماجد المصري.[٦]

إذاً في سن الثانية والعشرين، كان ناصر قد اختبر العمل الفصائلي، والمعتقلات، والحصار، والنضال العسكري، والإبعاد.

والذين يعرفون ناصر والتقوه في سجن نابلس، يوم كان شبلاً، يذكرونه فتى يافعاً هادئاً جاداً، متحمساً للجلسات التثقيفية والتنظيمية، ويصفونه بأنه كان رمزاً للبراءة، حتى أصبح يلقب بـ "البريء الأصبح"، وجاءت صفة "الأصبح" بسبب وجود خصلة شعر بيضاء في مقدّم رأسه. وفي عمّان التقى المبعَدون مروان البرغوثي، القائد الفتحاوي، والأسير الحالي في سجن هداريم، رئيس مجلس طلبة جامعة بير زيت السابق، الذي كان قد أُبعد إلى الخارج في سنة ١٩٨٧. وفي عمّان توطدت علاقته بالبرغوثي، لكن الذين التقوا الشبان المبعَدين وشاهدوا علاقتهم بمروان هناك يؤكدون أن العلاقة لم تخل من لمسة أبوية، أو على الأقل من كونها علاقة مع الأخ الأكبر، إلى درجة أنه كانت تسرّهم المناسبات التي يصطحبون فيها أطفال مروان إلى زيارة مدن الألعاب (الملاهي)، بل إنهم كانوا يندمجون في اللعب هناك.[٧]

وفي أثناء الإبعاد، وعلى الرغم من الإقامة الجبرية التي فُرضت عليهم في الأردن، تمكّن الشبان من زيارة سورية، والذهاب إلى العراق حيث حصل ناصر على شهادة الثانوية العامة.

لم يكمل المبعَدون أعوام إبعادهم في الخارج، وعادوا، ومن ضمنهم ناصر، ضمن ترتيبات ما بعد اتفاق أوسلو، ليتحولوا سريعاً إلى مطاردين من قبل قوات الاحتلال بسبب نشاطهم السياسي. لكن ناصر لم يضيّع فرصة إكمال تعليمه فانتسب إلى جامعة النجاح وبدأ بدراسة علم الاجتماع. وواصل سياسياً نشاطه فانتُخب عضواً في اللجنة التنظيمية لحركة "فتح" في مخيم بلاطة في سنة ١٩٩٦، وانخرط في العديد من المراكز والهيئات الاجتماعية والثقافية مثل مركز يافا الثقافي، ولجنة الدفاع عن اللاجئين، وكان موعده مع الإصابة برصاص الاحتلال في قدمه في سنة ١٩٩٦، في أثناء الصدامات التي حدثت في إطار "انتفاضة النفق" التي اندلعت في إثر شيوع خبر فتح السلطات الإسرائيلية نفقاً أسفل الحرم الشريف.

تخرّج ناصر من الجامعة، لكن مع اندلاع انتفاضة الأقصى، انخرط في نشاطاتها. وكانت منطقة "قبر يوسف" في نابلس قرب مخيم بلاطة، إحدى نقاط التماس والمواجهة المستمرة بين المستوطنين والفلسطينيين، حيث تكررت استفزازات المستوطنين الذين قرروا في سنة ٢٠٠٠ زيارة القبر، فدارت اشتباكات مسلحة عُرفت لاحقاً بمعركة "قبر يوسف"، وقد اشترك ناصر فيها، وعُدّت المعركة منعطفاً في عسكرة الانتفاضة، وتأسيس "كتائب شهداء الأقصى"، الجناح العسكري لحركة "فتح".

يُعتقد أن ناصر كان أحد المؤسسين الرئيسيين للكتائب، وصار يُعرف لاحقاً باسم القائد العام للكتائب، وصار على رأس قائمة المطلوبين.

لم يتزوج ناصر، وكان يرفض الفكرة على الرغم من إلحاح الأهل، لاعتقاده أن نشاطه النضالي يتعارض مع فكرة الاستقرار وتشكيل الأسرة. لكن تجنّب ناصر تكوين أسرته الصغيرة لم يُجنّب أسرته الكبيرة تبعات نشاطه، ونشاط العديد من أفراد الأسرة.

حاول الإسرائيليون اعتقاله أكثر من مرة، ونصبوا كمائن له في بيت أهله، وخصوصاً في شهر رمضان، وكانت المداهمات تحدث في أوقات متعددة. وكاد مرة يقع في أيديهم إذ كان قد غادر البيت قبل الإفطار بقليل، لتجري المداهمة ساعة أذان المغرب. كان ذلك في آخر شهر

من سنة ٢٠٠١.

حوصر المخيم في نهاية شباط / فبراير ٢٠٠١ لخمسة أيام، وجرت عملية في ٢٥ من ذلك الشهر بهدف القبض على ناصر، وقد حامت طائرات أباتشي فوق منزل عائلته المكوّن فعلياً من عدة منازل متلاصقة داخل المخيم، وجرى تسليط أضواء ليزر على المنزل، الأمر الذي دفع أشقاءه إلى الاعتقاد أن المنزل سيُقصف فأخلوه سريعاً. لكن الهدم حدث بعد ثلاثة أيام، ومعه جرى هدم ثلاثة منازل للعائلة التي لم تتمكن من إعادة البناء إلاّ بعد عامين.

وبهدف حماية ناصر، حاول أعضاء "كتائب شهداء الأقصى" في المدينة القديمة في نابلس، القيام بحيلة تقتضي إشاعة أن عويص استشهد، بينما هو مختف في قرية بين مدينتَي نابلس وجنين. لم تنطل الحيلة على الاحتلال، وطورد عويص، وفي ١٣ نيسان / أبريل ٢٠٠٢، جرى تنفيذ عملية واسعة جواً وبراً، وحدث تمشيط بالقصف الجوي في الجبال بين نابلس وجنين، وإنزال مظلي، إلى أن حوصر المنزل الذي يختبئ فيه. وتخلى، هو وناشط آخر كان معه هو أحمد أبو خضر، عن فكرة محاولة الهرب، نزولاً عند طلب الأسرة التي اختبأوا عندها، ولم تكن تعرف هويتهم، وذلك خوفاً على سلامتهم. وادّعى ناصر أن اسمه محمد، وأنه عامل زراعة، لكن الجنود واظبوا على مخاطبته باسم ناصر، واتضح أنهم اصطحبوا صوراً له معهم، كما أُحضرت من طائرة مروحية صورة كبيرة له.

نشرت صحيفة "الشرق الأوسط" في ٣ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٠٢، حواراً مع عويص في سجن شطّة بواسطة الهاتف الخلوي، ودفع ناصر الثمن نحو خمسة أعوام من العزل.

أدين ناصر بقتل ١٤ إسرائيلياً، وحُكم بـ ١٥ حكماً مؤبداً و٥٠ عاماً إضافية. وبعد نقله إلى سجن هداريم مع مروان البرغوثي، أكمل دراسته وحصل على ماجستير الدراسات الإسرائيلية، وهو يقضي جزءاً كبيراً من وقته في الدراسة والقراءة، وتلاوة القرآن الكريم، والرياضة.

سعت أسرته للمساعدة في التخفيف عنه في الأسر، بينما كانت تحاول إعادة بناء حياتها ومنازلها التي دمرتها قوات الاحتلال. وواظب شقيقه بسّام لأعوام على الذهاب لرؤيته في المعتقل، بما في ذلك الأعوام التي عُزل فيها ناصر في سجن "إيشل"، في جنوب فلسطين بين سنتَي ٢٠٠٣ و٢٠٠٨.[٨] وأفلحت مواظبة بسّام على محاولة الزيارة على الرغم من تعرّضه لمضايقات الجنود المستمرة، برؤيته مرة واحدة خلال أعوام العزل، وذلك عندما لمح ممثلة للصليب الأحمر فأخبرها بقصته، واستطاعت أن تؤمّن له الزيارة، فجرى اللقاء من خلف النافذة الزجاجية كالعادة.

دخل أبناء بسّام الثلاثة، ربيع، وأنس، ومحمد، المعتقل، شأنهم شأن كثيرين من أبناء العائلة. وفي سنة ٢٠٠٣ سقط شهيدان من أبناء العائلة هما ـ محمد، ابن زهير الشقيق الأكبر لناصر، في أثناء مواجهات بين الشبان وجنود الاحتلال في المخيم، ثم بشير، ابن عم ناصر، الذي استشهد في المعتقل بعد تدهور سريع في صحته، ويُعتقد أن التعذيب هو سبب هذا التدهور المفاجئ في صحته. وكان بشير (٣٠ عاماً عند وفاته) قد اعتُقل على أحد الحواجز في أثناء عودته من عمله، وترك خلفه زوجة وطفلين. وفي سنة ٢٠٠٦، لحق الشقيق الأكبر بابنه، فاستشهد زهير في إثر استنشاقه غاز قنابل الجيش الإسرائيلي في أثناء اقتحام المخيم.

ويقدّر بسّام عدد أفراد العائلة الذين جُرحوا في المواجهات مع قوات الاحتلال بنحو عشرين فرداً.

عاهد أبو غلمي: مواعيد عائلية لا تُنسى

ضحكت وفاء يوسف أبو غلمي وأنا أسألها إذا ما كان عاهد قد انتظم في أي فصيل عندما أُسر أول مرة في سنة ١٩٨٤، وقالت إن الانتماء إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين موضوع عائلي، فالعائلة كلها منتمية إلى الجبهة.

وبينما كنت أراجع التفصيلات التي دوّنتها في نهاية مقابلتي مع وفاء، وجدت نفسي أمام مجموعة تواريخ تكفي لتجعل مولد وخطبة وزواج وأعياد ميلاد عاهد مسائل تخرج من نطاقها العائلي الاحتفالي، لتقترن بحدث في السياسة والمقاومة والاستشهاد والاعتقال.

عاهد من مواليد بيت فوريك قرب نابلس في ١٣ آذار / مارس ١٩٦٨. وبعد أقل من شهر على مولده، وتحديداً في ٣ نيسان / أبريل استشهد خاله محمود حنني، خلال عملية عسكرية تُعرف بعملية "الصوانة ـ خربة طانا".

عندما اعتقل عاهد أول مرة، كان موعد تقديمه امتحان شهادة الثانوية العامة، وقد قضى خمسة أشهر في سجن الفارعة الذي كان افتُتح قبل ذلك بعامين، وتم تخصيصه لمحاولة كسر إرادة شريحة الطلاب والشباب.

دراسة علم الاجتماع في جامعة بير زيت التي بدأها عاهد في سنة ١٩٨٦، طالت مدتها بسبب الانقطاع الناجم عن الاعتقال والمطاردة، ومنها اعتقاله في سنة ١٩٨٩، في إثر انفجار جسم في مناطق الأغوار، فتم التحقيق معه، ثم أُفرج عنه ليصار إلى اعتقاله إدارياً عاماً واحداً في أثناء مرحلة حرب الخليج في سنة ١٩٩٠، ليعود بعد ذلك قيادياً طلابياً، وفي الوقت ذاته يصبح متهماً دائماً عند حدوث أي نشاط عسكري للجبهة الشعبية.

بعد توقيع اتفاق أوسلو في سنة ١٩٩٣، أصبح عاهد مطارداً ومطلوباً من الاحتلال، لكنه تمكن من الاختفاء مع تقييد دخول قوات الاحتلال نسبياً إلى ما بات يُعرف بالمنطقة أ التابعة أمنياً للسلطة الوطنية الفلسطينية. وكان قد التجأ مع مجموعة من المطلوبين من الاحتلال إلى أريحا عندما تسلمتها السلطة الفلسطينية، وعادوا جميعاً سراً إلى رام الله عندما تولت إدارتها السلطة الفلسطينية.

أنهى عاهد دراسته في بير زيت، في ظروف صعبة، واقتضى تقدمه إلى الامتحانات إجراءات معقدة. لكنه بعد ١٢ عاماً تمكّن في النهاية من التخرج من الجامعة، وعمل في "مؤسسة الضمير لرعاية الأسير وحقوق الإنسان"، اعتباراً من سنة ١٩٩٦ حتى انتفاضة الأقصى في سنة ٢٠٠٠.

توالت على عاهد مواعيد الاعتقال الغريبة. فقد تعرف إلى وفاء يوسف (من الجانية قرب رام الله) في أثناء تردده على وزارة الثقافة، حيث كانت تعمل، وفي اليوم المحدد لطلب يدها من أهلها، في كانون الأول / ديسمبر ١٩٩٦، اعتقلته الشرطة التابعة للسلطة الفلسطينية مع عدد من كادرات الجبهة الشعبية، في إثر عملية نُفذت ضد مستوطنين في منطقة سردا قرب رام الله، ووُضع عاهد رهن الاعتقال في سجن أريحا حتى أيار / مايو ١٩٩٧.

وليس غريباً أن توافق عائلة وفاء سريعاً على طلب عاهد الارتباط بها مباشرة بعد الإفراج عنه، كون تلك العائلة مسيّسة مثل عائلته هو، فأختها عطاف يوسف خرجت من الأسر وأُبعدت إلى الأردن، وقررت الزواج من الأسير المحرر خضر القطامي على الرغم من معرفتها

أنه مصاب بمرض السرطان، وقد رزقت منه بولدين قبل وفاته. وشقيقة وفاء الثانية، فايزة، كانت مطاردة في سنة ١٩٨٧ وتقدم شاب لخطبتها في أثناء تلك المرحلة، وتقرر الزفاف في سنة ١٩٨٨، وشعر الأهل بكمين يُعدّ للقبض على العروس، فتدبروا أمر تحذيرها واصطحابها من صالون تجميل في رام الله، إلى بيت العريس، بسرّية من دون مراسم الزفاف العادية.

تقرر أن يكون زفاف عاهد ووفاء في ١٤ آب / أغسطس ١٩٩٧، لكن ظروف المطاردة جعلت من غير الممكن أن يظهر عاهد، فتمت ليلة الخطبة و"ليلة الحناء" من دون وجوده، وفي يوم عرسه جاءت حافلتان من بيت فوريك وفيها أهله وأصدقاؤه وناشطون في الجبهة الشعبية، وعبرت الحافلة طرقاً صعبة ومعقدة بديلة وسط انتشار عسكري كثيف في محيط منزل العروس في بيتونيا غربي رام الله، أمّا العروس فخرجت في موكبها في طرق فرعية، عبر القرى شمالي غربي رام الله.

مكث عاهد وعائلته الناشئة في رام الله، وكان مطارداً لا يمكنه مغادرة المنطقة أ، وواصل الاختفاء في قلب رام الله قرب دوّارَي الساعة والمنارة، الأمر الذي عنى أنه كان على وفاء وابنهما الأول قيس، أن يزورا العائلة في بيت فوريك والجانية وحدهما، بينما يتابع عاهد الدراسة والعمل في مؤسسة "الضمير"، وتتابعه أجهزة السلطة الفلسطينية، وتعتقله أحياناً كما في سنة ١٩٩٧، وحين بقي في مقر القيادة الفلسطينية (المقاطعة) نحو أسبوعين في سنة ٢٠٠٠، وحين بقي نحو ٤٠ يوماً في سجن الظاهرية، في الخليل. وعندما أفرج عنه مع آخرين من أعضاء الجبهة الشعبية الذين تمكنوا من الوصول إلى رام الله بيسر، كان مروره في مناطق تقع ضمن السيطرة الأمنية الإسرائيلية محفوفاً بالمخاطر، الأمر الذي استدعى ترتيبات خاصة كي يتمكن من الوصول إلى بيت لحم ثم رام الله. وتشارك ناشطون من الجبهة مع ناشطين من حركة "فتح" في تمكين عاهد من الوصول إلى رام الله ثانية.

تنظيمياً، ارتقى عاهد في السلّم القيادي للجبهة، فانتُخب في مؤتمر عام الجبهة، في تموز / يوليو ٢٠٠٠ عضواً في اللجنة المركزية، ومع اندلاع انتفاضة الأقصى في نهاية تشرين الأول/ أكتوبر صار أبو غلمي مطلوباً بإلحاح من الإسرائيليين، وورد اسمه في قوائم الاغتيالات والاعتقالات التي كان يسربها الإسرائيليون، الأمر الذي عقّد حياته أكثر إذ باتت إجراءات الاختفاء أقسى وأعقد. وبعد اغتيال إسرائيل الأمين العام للجبهة الشعبية أبو علي مصطفى في ٢٧ آب / أغسطس ٢٠٠٢، وردّ الجبهة باغتيال وزير السياحة الإسرائيلي رحبعام زئيفي في ١٧ تشرين الأول / أكتوبر في فندق في القدس، اقتضى الأمر أن يختفي عاهد كلياً، ولم يعد يتصل حتى بعائلته، ولا سيما أنه أصبح مطلوباً من الإسرائيليين ومن السلطة الفلسطينية في آن، كما أن وفاء أصبحت خاضعة لمراقبة الأمن الفلسطيني على مدار الساعة.

علمت وفاء لاحقاً أن عاهد ورفاقه يختفون في نابلس التي وصلوها بعد مسيرة استغرقت يومين مشياً في دروب وعرة، وتمكنت من لقائه عند أقارب، قبل اجتياح الإسرائيليين مدينة نابلس.

علم الإسرائيليون بوجود المجموعة في نابلس، وبدأوا يضيقون الخناق عليهم، وإحدى محاولات القضاء عليه، كانت في أثناء اضطراره إلى مراجعة عيادة طبيب الأسنان، فقصفوا العيادة. وعندما وصلت قوات الأمن الفلسطينية إلى مكان وجود عاهد ورفاقه، في يوم لاحق، في إحدى شقق نابلس، من خلال تتبّع سيارة استأجروها، جرت محاولة اعتقالهم ليلاً، فهربت

المجموعة، وتطلّب الهرب قفزهم من مبنى إلى آخر، الأمر الذي أدى إلى كسور وإصابات في رجلَي ويدَي عاهد، فاعتقلته الشرطة التابعة للسلطة ونقلته إلى أحد المستشفيات، ورتبت أن يقضي مع رفاقه ليلتهم الأولى في أحد المنازل، وذلك بحسب ما رواه رجال أمن للعائلة.

عندما علمت وفاء بالاعتقال في الساعة السادسة من صباح اليوم التالي، بدأت رحلتها للوصول إلى نابلس، وكانت حبلى بابنتهما ريتا، بينما كان ابنهما قيس قد تخطى ثلاثة أعوام من عمره. واستغرقت الرحلة ست ساعات ونصف ساعة سيراً على الأقدام معظمها في أماكن وعرة، في الوقت الذي تحتاج إليه المسافة في أوضاع عادية إلى ثلاثة أرباع الساعة فقط. وبما أن الطرائف لا تنتهي حتى في أشد اللحظات صعوبة، فإن قيس كان يلحّ في أثناء المسير على النزول من السيارة واللعب تحت الأشجار. كان ذلك في شباط / فبراير ٢٠٠٢، الذي تصادف مع حلول عيد الأضحى، وكان عاهد اصطحب قيس ووفاء قبيل العيد، إلى أسواق نابلس لشراء ثياب العيد.

فشلت محاولات عائلة عاهد للقائه ومعرفة مكان احتجازه، إلى أن اتضح أنه جرى نقله بترتيبات دولية، من نابلس إلى رام الله، وعندما أمكن لقاؤه أخيراً في مقر "المقاطعة"، كان الجبس يلفّ قدميه ويديه. وواصل قيس طرائفه وسط الألم بسؤال والده لدى مشاهدته في تلك الحالة: "أين أضعت حذائك؟"

اتضح أن تجبير قدم عاهد كان خطئاً، الأمر الذي اقتضى علاجات وزيارات لمستشفى رام الله، وترك أثراً دائماً في قدميه.

وكي تتواصل المناسبات الشخصية مع لحظات المواجهة الصعبة، اجتاح الإسرائيليون رام الله في يوم عيد ميلاد عاهد في ١٣ آذار / مارس ٢٠٠٢، وطبعاً داهموا المستشفى لاعتقاله، لكنه كان قد نُقل إلى مكان آمن في "المقاطعة"، وخرج الإسرائيليون بعد ثلاثة أيام من المدينة، وأعيد نقل عاهد إلى مستشفى الرعاية العربية القريب من "المقاطعة"، ثم أعيد إلى "المقاطعة" ثانية.

سُمح لعدد قليل من معارف عاهد وزوجته وعائلته بزيارته في المقاطعة، لكن عندما حدث الاجتياح الإسرائيلي الشامل لرام الله في نيسان / أبريل، وحوصر مقر السلطة الفلسطينية فيها، اعتقدت العائلة أنه وصحبه نُقلوا إلى مبنى الأمن الوقائي في بيتونيا على مقربة من مكان إقامة وفاء وقيس، ولذلك عندما قُصف مبنى "الوقائي" دب الهلع بشأن مصير عاهد، غير أن مسؤولاً فلسطينياً أكد للعائلة أنه لم يكن موجوداً في المبنى. وتمكن عاهد مرتين من الاتصال لدقيقة أو دقيقتين بعائلته من مبنى "المقاطعة"، وكان الاتصال غير واضح بسبب التشويش الإسرائيلي. كما اتصل أشخاص غير معروفين في أثناء اشتداد الحصار، ويُعتقد أنهم من حرس الرئاسة الفلسطينية، مرات قليلة بوفاء، ولثوانٍ، يؤكدون فيها سلامة عاهد.

نُقل أحمد سعدات ـ الأمين العام الجديد للجبهة الشعبية الذي خلف الأمين العام الشهيد أبو علي مصطفى ـ الذي كان موقوفاً أيضاً في "المقاطعة"، وكذلك عاهد والمجموعة المتهمة باغتيال زئيفي،[٩] إلى أريحا بموجب اتفاق دولي. وفي اليوم التالي وصلت العائلة بعد رحلة شاقة عبر الجبال إلى سجن أريحا لزيارة عاهد، ثم ولدت ريتا، في أيلول / سبتمبر ٢٠٠٢. وعلى مدى أربعة أعوام بقي عاهد وصحبه في أريحا، وكانت الزيارات تتكرر، لكن الجميع تجنّب أي حديث عن اغتيال زئيفي، أو أي نشاطات قد تتضمن معلومات، ليقينهم أن المعلومات

ستكون عبئاً على مَن يعرفها.

في سنة ٢٠٠٦ اجتاحت قوات إسرائيلية أريحا، واعتُقل أحمد سعدات وعاهد والمجموعة التي كانت معهما في السجن هناك. وفي لائحة الاتهام الإسرائيلية، فإن عاهد مشارك في الاغتيال، باعتبار أن له دوراً في إعطاء الأمر والتخطيط، وحُكم بالسجن المؤبد و٥ أعوام إضافية. وفي الأسر اهتم الإسرائيليون جداً بألاّ يلتقي أحمد سعدات وعاهد في معتقل واحد، إذ لا يزال هناك خشية من دور يقومان به حتى من داخل المعتقل، ومن هنا وُضع عاهد في زنزانات العزل من كانون الثاني / يناير ٢٠١٠ حتى أيار / مايو ٢٠١٢، ولم يُطلق إلاّ بعد إضراب عن الطعام.

الآن يسمح لقيس وريتا وبعض أفراد العائلة بمقابلة عاهد، لكن زوجته ممنوعة من الزيارة. ويحاول عاهد في الدقائق التي تسمح بها الزيارات أن يعرف أكثر ما يمكن عن العائلة، وأن يناقش مع الأبناء، حياتهم الاجتماعية والعامة، وبكلمات أُخرى يحاول ممارسة أبوته من خلف قضبان زنزانات الاحتلال.

عاهد من المقاومين المحكومين بالبقاء طويلاً في سجون الاحتلال، بينما ريتا وقيس يشبّان ووالدهما بعيد عنهما. أمّا الزوجة وفاء فتحمل على كاهلها مهمة رعاية العائلة وحيدة. ■

المصادر

١ **أجريت المقابلة مع بسّام عويص، شقيق ناصر، بحضور أفراد آخرين من الأسرة، في منزل العائلة في مخيم بلاطة، في ٢ شباط / فبراير ٢٠١٤. ومع وفاء يوسف أبو غلمي، زوجة عاهد، في مكتبها في وزارة الثقافة، في رام الله، في ١٣ شباط / فبراير ٢٠١٤.**

٢ **ولد ياسر البدوي في سنة ١٩٧٢، في مخيم بلاطة، وعمل في جهاز الأمن الوقائي لدى عودته بعدما كان مبعَداً، وهو يُعتبر من قادة "كتائب شهداء الأقصى"، واستشهد في ٢٠ آب / أغسطس ٢٠٠١.**

٣ **ولد عبدالله داود في سنة ١٩٦٢، وعمل في مهمات قيادية في دائرة الاستخبارات الفلسطينية، بعد عودته من الإبعاد إلى الأردن، وكان يتولى رئاسة جهاز الاستخبارات في بيت لحم. وفي أثناء انتفاضة الأقصى، حوصر ضمن المحاصرين في كنيسة المهد، وخرج ضمن صفقة فك الحصار، فأُبعد في سنة ٢٠٠٢ إلى موريتانيا، ثم انتقل إلى الجزائر، وأصبح برتبة عميد، وتوفي هناك بجلطة دماغية في ٢٠١٠، ودُفن في مخيم بلاطة.**

٤ **أصبح بلال دويكات من قياديي حركة "فتح" في نابلس.**

٥ **محمد تيم هو الآن مدير شرطة طولكرم.**

٦ **كان ماجد المصري أحد قادة "كتائب شهداء الأقصى" واعتُقل في تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠٠٢.**

٧ **المعلومات عن ناصر في أثناء سجنه أول مرة، وعن مرحلة الإبعاد، قدّمها شقيق مروان البرغوثي الذي التقى ناصر في أثناء اعتقالة في السجن حينها، والتقاه أيضاً في عمّان خلال مرحلة إبعاد ناصر ومجموعته.**

٨ **المقصود الحبس الانفرادي، أو مع شخص واحد فقط.**

٩ **إضافة إلى سعدات وعاهد تضم المجموعة مجدي الريماوي، وباسل الأسمر، وحمدي قرعان المتهم بإطلاق الرصاص على رحبعام زئيفي.**

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

(قضايا استراتيجية ـ ٢)

الصناعات الأمنية الإسرائيلية

الوظيفة الاستراتيجية والاقتصادية

إشراف وتحرير

أحمد خليفة

١٠٤ صفحات ٥ دولارات

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

(تقارير مختارة ـ ٦)

الاتحاد الأوروبي والمستوطنات الإسرائيلية

من الدعم إلى قرار المقاطعة

٩٢ صفحة ٥ دولارات